عبدالرحمن و«سبعطعش تموز»

بقلم: احمد الصراف

مرت قبل فترة وبهدوء عجيب ذكرى الانقلاب العسكري على الملكية في العراق يوم ١٤ يوليو ١٩٥٨ وذكرى ١٧ يوليو ٦٨ عندما انقلب العسكر على العسكر واستلم رؤساء فرق الاغتيال في حزب البعث الحكم في العراق. منذ «اربعطعش تموز» والعراق لم يذق طعم الراحة ولم يتمتع بلحظة هدوء، ومنذ «سبعطعش تموز» غابت البسمة عن ملايين الوجوه وتوالت الكارثة تلو الاخرى على الشعب العراقي بفضل كل تلك القيادات التي توالت على حكمه.

كتب سليم اللوزي، الصحافي اللبناني الراحل حكاية في مجلة «الحوادث» التي كان يملكها وذلك بمناسبة حلول احد «اعياد اربعطعش تموز» فقال انه كان ومجموعة من اصدقائه جالسين في بار كازينو «البلاي بوي» الشهير في لندن، قبل الغاء ترخيصه، يحتسون الشاي بالنعناع! وفجأة سمعوا جلبة في ركن من البار وصياح وشتائم تصدر من سيدة في حق احد العاملين، كان منظرها يثير الشفقة فقد انحسرت «باروكتها» وظهر لون شعرها الاشيب من تحتها، وكانت في حالة يرثى لها من السكر. لم يهتم الغرباء الثلة بالامر الا احدهم، الذي قام باستدعاء احد المسؤولين بايماءة من رأسه، وساله عن سبب تذمر السيدة وصياحها فقال له المدير انها تصر على ان يستمر البار في خدمتها بالرغم من انها لم تقم بدفع مبلغ كبير متراكم عليها، فطلب من المدير قيد مبلغ الدين على حسابه، وان يدفع لها مبلغا كبيرا وان يقوم بطردها من الكازينو والغاء عضويتها منه.

تملكت الدهشة جميع الحضور، حيث ان الكل يعرف مدى بخل ذلك الرجل وحرصه الشديد على ماله، واصبح الكل في شغف لمعرفة ذلك الكرم المفاجئ الذي حل بالسيد عبدالرحمن.. رجل الاعمال العراقي المعروف ومعرفة الاسباب الكامنة وراء تعليماته تلك للمسؤول.اعتدل عبدالرحمن في جلسته وقال انه قبض عليه قبل سنوات عديدة بتهمة التعاطف مع احد تلك الانقلابات العديدة التي توالت على العراق، التي كان مصير المشاركين فيها اما الموت الزؤام، ان فشلوا، او النصر من غير كلام ان نجحوا. ووضع في السجن، مر ما يقارب العام عليه وهو قابع في السجن لا يعرف تهمته او مصيره!!! جلت اثناءها مناسبة مرور سنة على المحاولة الانقلابية الفاشلة لاغتيال الزعيم «الاوحد» عبدالكريم قاسم السخيف جدا، وحيث ان علاقات العراق بمصر وسوريا كانت تمر بأسوا حالاتها، فقد امر باستدعاء «الفيف» من المطربين والمطربات من لبنان ودول اخرى لاحياء تلك المناسبة التعيسة. نصب سرادقا كبيرا للاحتفال، وكان اغلب الحضور من ضباط الجيش والامن، حيث ابتلي العراق بمنظرهم وربما الى الابد. الاغاني كانت رتيبة والمطربون غير معروفين والالحان فاشلة، وفجأة صعدت الى المسرح مطربة من لبنان معشوقة الجماهير وامكست بالميكروفون وهمست ببضع كلمات في اذن قائد الفرقة ونزلت الى الجمهور، وتوجهت بخطى ثابتة الى حيث كان يجلس الزعيم الاوحد وابتسمت له واعطت الاشارة لقائد الفرقة بالعزف، وعلى وقع الموسيقى مدت يدها الى سوالف الزعيم البيضاء وغنت باللهجة اللبنانية المحببة اغنية كان مطلعها «يسلمولي هالشيبات..» فانفرجت اسارير الزعيم عن ابتسامة صفراء اشتهر بها ونظر حوله بزهو، وسرت العدوى لبقية الحضور من حملة النجوم والسيوف فابتسموا جميعا، وشاركوا المطربة في الغناء والتصفيق، وفي لحظة نشوة عارمة التفت الزعيم لاحد الضباط وطلب منه اعلان العفو عن عدد من المساجين احتفالا بتلك الذكرى التعيسة.

يكمل عبدالرحمن سرد قصته، والكل صامت ومبهور، فيقول انه كان سعيد الحظ، فقد كان من ضمن الدفعة الاولى التي تم الافراج عنها ولم يعرف السبب في حينها ولم يرغب في معرفته ايضا، وبعدها بايام ترك العراق والى الابد وانضم الى اخيه التاجر في لندن وكون هناك ثروة هائلة، وعرف بعدها بسنوات الظروف التي ادت الى خروجه من السجن، وعرف ان المطربة اللبنانية «اوديت كعدو» هي التي غنت تلك الاغنية التي ادخلت السرور على قلب من لم يدخل السرور على قلب احد، وكانت، من غير ان تعلم، السبب المباشر لبقائه حيا اولا ولاستمتاعه الحالي بحريته وثرائه ثانيا. مرت السنون ولم يسمع بتلك المطربة بعدها حتى كان ذلك اليوم عندما تعرف عليها حيث كانت هي نفسها تلك السيدة المخمورة التي دخلت في شجار مع النادل الذي رفض خدمتها وقال انه، رحمة بها، طلب الغاء اشتراكها لكي يمنعها من صرف ما دفعه لها على طاولة القمار ان هي عادت للنادي نفسه!!انتهت قصة عبدالرحمن ولكن لم تنته قصص وكوارث دول عديدة ابتليت بانظمة فاسدة وظالمة وحاقدة. لم يعرف تاريخ البشرية ابطش ولا اقسى منها في معاملة مواطنيها والتنكيل بهم، تارة تحت اسم محاربة الاستعمار واخرى لمحاربة الصهيونية وثالثة لمحاربة الامبريالية العالمية.